

مادة مفاهيم ونصوص فلسفية

S1

ذ.محمد مزيان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية (جامعة ابن طفيل/القيطرة)
مسلك الفلسفة

الموسم الجامعي: 2020-2021

الحصة الأولى

مدخل :

رأس الشأن في هذه المحاضرات هو تقصي سلسلة أساسية من المفاهيم الفلسفية، وذلك من خلال جملة من النصوص الفلسفية. وسيتم، على امتداد هذه المحاضرات، التركيز أكثر على العصر الحديث إذ هو العصر الذي نشأت فيه العلوم الإنسانية وعلى رأسها علم الاجتماع. لقد أوجد هذا العصر نمطاً من الأسئلة غير المسبوقة ورسم أفقا فكريا سمح بظهور علوم مستحدثة. إن العصر الحديث هو بهذا المعنى يشكل محك العصور السابقة، المحك النظري الذي نحت أسئلة مدارها شروط إمكان تشكل الأنا. من هنا كانت المفاهيم التي عالجناها هاهنا هي مفاهيم الذات، الحقيقة، العقل، الوجود الجماعي، الله... فمراجعة هذه المفاهيم ستفتحنا من جهة على تمحيص كل تاريخ الفكر الفلسفي، وستسمح من جهة أخرى، برصد شروط إمكان المعارف الحديثة على تنوعها واختلافها، أي من العلوم الدقيقة إلى العلوم الإنسانية وخاصة علم الاجتماع.

أ- في شأن سؤال الحقيقة:

يمكن صياغة سؤال الحقيقة كما تداولته أدبيات التأسيس الفلسفي للذات على اختلاف مشاربها كما يلي: ما الحقيقة؟ ونحن نقصد أن ذلك ينطبق على "ديكارت"، "لايبنتز" و"مالبرانش". غير أن صيغة السؤال هاته ليست من البداهة في شيء بل إنها كأى سؤال يبدأ بـ "ماهي؟" فهو يتضمن سلفا حقيقة ما يسأل بشأنه. وبما أن الطلب هنا هو بشأن الحقيقة فحقيقة الحقيقة هي أصلا هنا بوصفها معطى حيث لا يحضر السؤال إلا كإجراء تقني دون فائدة فلسفية تذكر، ولعل أن ما يؤكد ذلك هو تحديد "ديكارت" للحقيقة على النحو التالي: "لقد وضعت الطبيعة في الفكر الإنساني بعض البذور الأولى للحقيقة" (1). لا يخلو هذا التحديد من تأكيد للحقيقة باعتبارها معطى داخليا حميميا وحده الكفيل بأن يجعل منها محمولا لـ "الأنا"، أو كما يقول "ديكارت" "أنا شيء يفكر: وما معنى شيء يفكر؟ أي شيء يشك، يتصور، يثبت وينفي، يريد ولا يريد ويتخيل كما أنه يحس" (2). بهذا تصير الأنا ذاتا في اللحظة التي تتحدد بها كأفكار معطاة فطرة، مثلما في اللحظة التي يوضع فيها الفكر في مقابل الجسد، العقلي في مقابل الحسي.

صحيح أنه، في حدود علمنا، لم يرد مصطلح "الذات" أبدا في أعمال "ديكارت" إلا أن تحديده للحقيقة بوصفها فطرة أي باعتبارها أشرف من المعطى المحسوس جعل الأنا فاهمة دون الجسد، فاهمة مكتفية بذاتها دون العالم أي الإرتقاء بالأنا إلى مستوى الذات. بهذا أصبح العالم يشكل دليل نقص حيث حقيقة الأنا كذات لن تستقيم إلا باحتراس العقلي مما هو حسي، من هنا قول "ديكارت" إن "المنهج ضروري من أجل بحث الحقيقة" ثم يضيف: "فيما يتعلق بالمنهج فأنا أقصد بذلك مجموعة قواعد يقينية وبسيطة حيث ملاحظتها الحقيقية تجعل أيا كان لا يأخذ أبدا بما هو خاطئ بدل ما هو

صحيح" (3). لارتقي الفكرة إذن إلى مستوى الحقيقة إلا بقدر ما يؤكد المنهج وضوحها وتميزها، الأمر الذي ينطبق على فكرة الأنا نفسها ولعل ذلك ما يريده "ألكي" من قوله "إن فكرة الأنا وفكرة الله هي أكثر حضوراً [أكثر بدهة] من فكرتي المثلث والدائرة" (4). ما يشد إذن فكرة الأنا إلى ذاتها حيث تمثل في تطابقها وقد استحالت ذاتاً هو بدهتها المتأتمية من كونها جوهرًا في مقابل الجسم، أو كما يقول "ديكارت": "الطبيعة الإنسانية هي جوهر متميز تماما عن الجسم... فنحن نعرف بجلاء أننا لكي نكون لسنا في حاجة إلى الإمتداد ولا إلى الشكل ولا إلى أي مكان... وبهذا فنحن نوجد لأننا نفكر" (5). إن الحقيقة عموماً هي كذلك بقدر ما هي عقلية، وحقيقة الذات إذن هي أنها فكر، نشاط عقلي فطري. وبقدر ما أنها كذلك فهي تكتسب يقينها من اكتفائها بذاتها.

حقيقة الذات إذن أنها اكتفاء ذاتي بما يترتب على ذلك من إحقاق لسموها بين عموم الكائن. وليس صدفة أن تتحدّد هذه الحقيقة بما هي عطاء الذات، تتحدّد بوصفها قدرة على الحكم. الحكم هو سيرورة تعكس إجراءات الإحتراس من السقوط في الخطأ حيث ما يفتأ الحسي يتربص بما هو عقلي، لذلك يقتضي الحكم الحدس العقلي أولاً ثم الإستنباط ثانياً. ينصب الحدس على الطبائع البسيطة التي تدركها الفاهمة على نحو مباشر أي أنها تمثل بوصفها بدهة بما يميز البدهة من قوة الحضور المباشر للفكرة في الذهن؛ ويشكل هذا الحضور - الذي ليس إلا حضوراً للذات أمام ذاتها - منطلق الإستنباط. لذلك قال "ألكي" "الإستنباط وإن كان استدلالياً فهو يتحقق من خلال علاقات مدركة حدسيا بحيث أن تعرف هو أن ترى" (6). الرؤية العقلية التي تتلافى الرؤية الحسية من خلال الحدس والإستنباط العقلين وذلك بغاية الإثبات الخالص للذات بوصفها اكتفاء ذاتياً، وعياً مغلقاً.

إن ما يؤكد ذلك أكثر هو آلية الشك التي تفيد بضرورة التحقق الدائم من الطبيعة الخالصة المغلقة للذات، وهو شك إرادي يعلن في كل مرة عن مولد الذات من حيث إنها إرادة تريد الحكم من خلال الحدس والإستنباط بشأن ماهية الأشياء، إنها إرادة الحكم على الأشياء بمعزل عنها هذا مادام أن الحكم لا يصبح متأتماً إلا بإجراء درى المحسوس باعتباره باعناً على الخطأ، وهذا ما يريده "ألكي" من قوله: "يتعلق الأمر إذن بالشك أي بالإنفصال عن الكائن وإثبات الذات من خلال نفي كل علاقة بالخارج. هكذا فإن الكوجيتو يثبت ذاته من خلال الشك في الموضوع" ثم يضيف: "تجعلنا دراسة الحرية نفهم لماذا لا يمكن للإنسان أن يتأكد إلا من خلال عملية النفي" (7).

لاتتأكد إذن الذات إلا بنفي العالم إنها في جوهرها إرادة نفي، فذلك هو معنى الحرية عند "ديكارت". الحرية بوصفها محمولا أساساً للإرادة تلزم الإرادة على الحكم، ف " أن تكون حراً يعني أن تكون قادراً على الإختيار" (8). من هنا امتعاض "ديكارت" من الطابع اللامبالي الممكن للأنا، امتعاض نلمسه ضمن قوله: "اللامبالاة

لا تظهر إلا باعتبارها الدرجة الأدنى من الحرية فهي بذلك ليست جهلا، إنها كشف عن نقص في المعرفة أكثر من أن تكون كمالات للإرادة" (9).

تتشكل الأنا بوصفها ذاتا من خلال سيرورة الإقصاء فهي قوة نفي، ولكي تتشكل الأنا كذات يلزم إثبات مبدئية العقلي بالنظر إلى الحسي بما يقتضيه ذلك من تسييد للذات كحكم يتحكم في مصير الكون. فالحكم هنا ليس من التأمل النظري في شيء، بل إنه فعل بما هو تحديد لماهية الشيء كمدخل لتقرير صيغة استخدامه والتعامل معه. فلم تكن أطروحة "ديكارت" تقتصر على تحديد الحقيقة باعتبارها يقينا بل إن تحديدها ذاك ما كان له أن يستقيم دون علاقة المفاضلة بين المعقول والمحسوس مما سمح بمحاكمة العقلي للحسي باعتبار الأول شرطا للحقيقة والثاني باعنا على الخطأ؛ بل إن هذه المفاضلة هي الأصل البعيد لتشكيل الأنا ذاتا. فاهمة تعبت بالأشياء وبمصائرهما.

هكذا نتبين أن ادعاءات الذات بوصفها جوهر عاقلا لا يخلو من مغامرة بالنظر إلى مفاعيله العملية، فتحديد الأنا باعتبارها عقلا خالصا يترتب عليه مولد الذات باعتبارها إرادة وحرية هما شرح للحكم كتحكم في الكائن.

إنه مهما سجّلنا من اختلافات بين "ديكارت" و"لايبنتز" فالثابت المشترك بينهما يظل هو تحديد الذات بوصفها وعيا حميميا مطلقا. وإذا كان الحدس العقلي والإستنباط كفيلين ببحث سؤال الحقيقة عموما وحقيقة الذات خصوصا عند "ديكارت" فإن طرح سؤال الحقيقة عند "لايبنتز" ارتهن بالإرث المنطقي الأرسطي الذي كان "ديكارت" يتقاده لأسبابه الخاصة.

يقول "لايبنتز": "إن الأفكار العقلية التي هي مصدر الحقائق الضرورية ليس مصدرها الحواس أبدا". ثم يتابع: "لكن الأفكار التي تأتي من الحواس تكون غامضة وكذلك تكون الحقائق المرتبطة بها" (10). إن الحقيقة هي كذلك بما هي عقلية، لهذا كانت حقيقة الذات هي سيرورة تخليص الأنا مما هو حسي واختزالها أخيرا فيما هو عقلي، فالأنا تصير ذاتا أي "مونادا" (العنصر البسيط الذي تتشكل منه الكائنات، كما يقال أيضا عن الكائنات من حيث إنها مستقلة قائمة بذاتها مثل الإنسان، الأشجار، الأحجار، الحيوان، الله...) حيث "الموناد الذي نتحدث عنه هنا ليس شيئا آخر غير جوهر بسيط يدخل في تشكيل المركب، إنه بسيط أي دون أجزاء" (11). كان "لايبنتز" يتحدث بشأن عموم الكائنات دون تمييز بعد، فكان أن حقيقة الكائن لا تتأتى إلا بتجريد خاصية التنوع فيه واختزاله في قوى رياضية منطقية وذلك ما يريده من قوله: "الحال أنه حيث ليس هناك أبدا أجزاء فليس هناك لامتداد ولا شكل ولا إمكان لقابلية القسمة. وهذه المونادات (جمع موناد) هي الذرات الحقيقية للطبيعة، وعموما إنها عناصر الأشياء" (12). فمادام أن الكائن يمثل في حقيقته بقدر ما يسلب منه تنوعه الحسي الذي يشكل نافذته على الخارج بقدر ما تكون

النتيجة هي ما انتهى إليه "لايبنتز" من قوله: "إن المونادات ليس لها نوافذ من خلالها يمكن لشيء ما أن يدخل أو يخرج منها" (13). هكذا يترتب على القول بفطرية الحقيقة الطبيعية المنغلقة للذات مما يضاعف من تذييت الأنا، تحويلها ذاتا.

لائحة المراجع

- 1)- Descartes (René), règles pour la direction de l'esprit, p 24, vrin, 1970.
- 2)- Descartes (René), méditations, p29, vrin, 1960.
- 3)- Descartes (René), règles pour la direction de l'esprit, p 18-19, vrin, 1970.
- 4)- Alquié (Ferdinand), la découverte metaphysique de l'homme... t 2, p223, ceres, 1995.
- 5)- Descartes (René), les principes de la philosophie, p55, vin, 1967.
- 6)- Alquié (Ferdinand), la découverte metaphysique de l'homme... t 1, p87, ceres, 1995.
- 7)- Alquié (Ferdinand), la découverte metaphysique de l'homme... t 2, p258, ceres, 1995.
- 8)- ibid, 359.
- 9)- ibid, 363.
- 10)- Leibniz (Gottfried wilhelm), nouveaux essais, p 64, Flammarion, 1990.
- 11)- Leibniz (Gottfried wilhelm), La monadologie, p123-124, Librairie Générale Française, 1990.
- 12)- ibid, p125.
- 13)- ibid, p126.

انتهى